الشافعي واضع علم أصول الفقه

للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الاداب

— ٧ —

١ — الدراسات الفقهية الى عهد الشافعي . ب — أهل الرأي وأهل الحديث
ج — الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث وآثاره وكتبه
د — وضع الشافعي علم أصول الفقه

ومذهب الشافعي الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب وقد سرد البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ — ١٠٦٥ - ١٠٦٦ م كتب الشافعي ولخصها عنه ابن حجر في ص ٧٨

(الرسالة القديمة ، ثم الجديدة - اختلاف الحديث ، جماع العلم — إبطال الاستحسان — أحكام القرآن — بيان الفرض — صفة الأمر والنهي — اختلاف مالك والشافعي - اختلاف العراقيين — اختلافه مع محمد بن الحسن — كتاب علي وعبد الله — فضائل قريش — كتاب الأم — ...

وعدة كتب الأم : مائة ونيف وأربعون كتابا وحمل عنه حرملة كتابا كبيراً يسمى « كتاب السنن » وحمل عنه المزني كتابه « المبسوط » وهو المختصر الكبير والمنثورات وكذا المختصر المشهور — قال البيهقي : وبعض كتبه الجديدة لم يعد تصنيفها وهي : الصيام — والصداق — والحدود — والرهن الصغير — والاجارة - والجنائز - فانه أمر بقراءة هذه الكتب عليه في الجديد وأمر بتحريق ما يغاير اجتهاده قال : وربما تركه اكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه في مواضع أخرى

وبالاجمال تبدو اعتراضات المتخوفين من تعليم النساء تعليما عاليا واهية لانها تنافي اصول المنطق والعدل والشهامة وما هي في صميمها إلا نتيجة للانانية او الازمات الاقتصادية التي تجعل الناس يفتشون عن المرأة دائما شأنهم في كل شيء فيعملون على ارجاعها الى عقر الدار ناسين أو متناسين ماطرأ على العالم من تطورات فكرية واجتماعية واقتصادية خطيرة غيرت من وظيفة المرأة فجعلتها لاتقتصر على المنزل وتربية الاطفال وانما تشمل أيضا استخدام مواهبها خارج الدار او في قلب المجتمع وذلك هو العهد الجديد. والتعليم العالي هو الذي يهيء المرأة لهذا العهد الذي اصبح امرا واقعا فيجب ان نعترف به مختارين أو مرغمين

أسماء فهمي

قلت : وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيراً من الاشكال الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعي الرجوع عنها وهي موجودة في بعض هذه الكتب

ثم نقل ابن حجر : أن لأصحاب الشافعي من أهل الحجاز والعراق عنه مسائل وزيادات قال: وهذا يدل على أن (كتبا أخرى حملها عنه هؤلاء لأن هذه المسائل ليست في الكتب المقدم ذكرها)

وقد ترك ابن حجر في تلخيصه : كتاب « مسند الشافعي » ولا ندري : ان كان البيهقي قد تركه أيضا أم لا ؟ ويقول الرازي (ان كتابه المسمى « بمسند الشافعي » كتاب مشهور في الدنيا ، ص ١٤٦)

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعي الى جمع المسائل وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية عند ما تكون دلائلها نصوصا وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضاً لذكر الدلائل من أهل الرأي

فلما جاء الشافعي بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله وأخذ ينقض بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط

وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاها جديداً هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعنى بالجزئيات والفروع

ويدل على أن اتجاه الشافعي لم يكن الى تمحيص الفروع : ما نقله ابن عبد البر في « الانتقاء » من : أن احمد بن حنبل قال : « قال الشافعي لنا : أما أنتم فاعلم بالحديث والرجال مني فاذا كان الحديث صحيحا فاعلموني أن يكون كوفيا ، أو بصريا أو شاميا ، أذهب اليه اذا كان صحيحا » ص ٧٥

وطريقة علاجه لمسائل العلم تدل على منهجه قال أبو محمد بن اخت الشافعي عن أمه قالت : ربما قدمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدي الشافعي ، وكان يستلقي ويتذكر ثم ينادي يا جارية هلمي مصباحا فتقدمه ويكتب ما يكتب ثم يقول : ارفعيه ، فقيل لأحمد : ما أراد برد المصباح ؟ قال : الظلمة أجلى للقلب . مفتاح السعادة ج ٢ ص ٩١

وليس هذا النوع من التفكير الهادىء في ظلمة الليل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع

بل يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية باصول تجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفي

قال ابن سينا في الشفاء « انا لا نشتغل بالنظر في الجزئيات

لكونها لا تتناهى وأحوالها لا تثبت وليس علمنا بها من حيث هى جزئية تفيدنا كالا حكميا أو تبلغنا غاية حكمية ، بل الذى يهمنا هو النظر فى الكليات ،

وكان احمد يقول : الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة — واختلاف الناس — والمعانى — والفقه (الرازى ص ٣٥)

وقد حاول الشافعى : أن يجمع أصول الاستنباط الفقهى وقواعدها علما ممتازا وأن يجعل الفقه تطبيقا لقواعد هذا العلم

وبهذا يمتاز مذهب الشافعى من مذهب أهل العراق وأهل الحجاز

د — وضع الشافعى لعلم أصول الفقه

اذا كان الشافعى هو أول من وجه الدراسات الفقهية الى ناحية علمية فهو أيضا : أول من وضع مصنفا فى العلوم الدينية الاسلامية على منهج علمى بتصنيفه فى أصول الفقه ، قال الرازى : اتفق الناس على : أن أول من صنف فى هذا العلم — أى علم أصول الفقه — الشافعى وهو الذى رتب ابوابه وميز بعض أقسامه من بعض وشرح مراتبها فى القوة والضعف

وروى : أن عبد الرحمن بن مهدى التمس من الشافعى وهو شاب أن يضع له كتابا يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة ، والاجماع ، والقياس ، وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص ، فوضع الشافعى رضى الله عنه « الرسالة » وبعثها اليه

فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدى قال : ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل ثم قال الرازى : واعلم : أن نسبة الشافعى الى علم الاصول كنسبة « أرسطاليس » الى علم « المنطق » وكنسبة « الخليل » بن أحمد الى علم « العروض »

وذلك لأن الناس كانوا قبل « أرسطاليس » يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة لكن ما كان عندهم قانون مخلص فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين

فلاجرم . كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة فأن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلى ، قلما أفلح . فلما رأى « ارسطاليس » ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج علم « المنطق » ووضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع اليه فى معرفة الحدود والبراهين

وكذلك الشعراء كانوا قبل « الخليل بن احمد » ينظمون أشعارا وكان اعتمادهم على مجرد الطبع فاستخرج « الخليل » علم « العروض » فكان ذلك قانونا كليا فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده فكذلك هنا الناس كانوا قبل الامام الشافعى يتكلمون فى مسائل « أصول الفقه » ويستدلون ، ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضتها ، وترجيحاتها ، فجاء الشافعى علم « اصول الفقه » ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع .. ثم يقول الرازى : واعلم ان الشافعى صنف كتاب « الرسالة » ببغداد ولما رجع الى مصر أعاد تصنيف كتاب « الرسالة » وفى كل واحد منهما : علم كثير ص ٩٨ - ١٠٢

ويقول « بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى » المتوفى سنة ٧٩٤هـ ١٣٩١-١٣٩٢ م فى كتابه فى أصول الفقه المسمى بالبحر المحيط « فصل » : الشافعى أول من صنف فى « أصول الفقه » صنف فيه كتاب « الرسالة » وكتاب احكام القرآن واختلاف الحديث وأبطال الاستحسان وكتاب « جماع العلم » كتاب القياس — الذى ذكر فيه : تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم

ثم تبعه المصنفون فى علم الاصول ، قال احمد بن حنبل « لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعى »

وقال الجوينى فى شرح الرسالة : لم يسبق الشافعى أحد فى تصانيف « الاصول » ومعرفتها ، وقد حكى عن ابن عباس « تخصيص عموم » وعن بعضهم « القول بالمفهوم » ومن بعدهم لم يقل فى الاصول شىء ولم يكن لهم فيه قدم فانا رأينا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه «من نسخة خطية بالمكتبة الاهلية بباريس »

ويقول ابن خلدون فى المقدمة : « وكان أول من كتب فيه أى فى « علم أصول الفقه » الشافعى رضى الله عنه أملى فيه « رسالته المشهورة » تكلم فيها فى : الأوامر والنواهى ، والبيان ، والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة ، من القياس

ثم كتب « فقهاء الحنفية » فيه ، وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها ، وكتب المتكلمون أيضاً » ص ٣٩٧

وفى كتاب « طبقات الفقهاء » للقاضى شمس الدين العثمانى الصفدى : وابتكر الشافعى مالم يسبق اليه من ذلك : « أصول الفقه » فانه أول من صنف « أصول الفقه » بلاخلاف

ومن ذلك : « كتاب القسامة — وكتاب الجزية — وكتاب قتال أهل البغى » من نسخة خطية بدار الكتب الاهلية بباريس

ويقول صاحب كتاب « كشف الظنون » : وأول من صنف فيه « الامام الشافعى » ذكره الأسنوى فى التمهيد وحكى الاجماع فيه ص ٣٣٤

والباحثون فى هذا الشأن من الغربيين يرون فى « الشافعى » واضعا « لأصول الفقه » يقول (جولد زيهر) فى مقالته فى كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الاسلامية : « واظهر مزايا « محمد بن ادريس الشافعى » : انه وضع نظام الاستنباط الشرعى من أصول الفقه

وحدد مجال كل أصل من هذه الاصول وقد ابتدع فى (رسالته) نظاما للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع من غير اخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم ريث الاستنباط من هذه الاصول ووضع القواعد لاستعمالها بعد ما كان جزافا.

على أنا نجد فى كتاب الفهرست فى ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى (كتاب أصول الفقه)

ويقول الموفق المكى فى كتابه (مناقب الامام الأعظم) نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر: أن أبا يوسف اول من وضع الكتب فى «أصول الفقه» على مذهب أبى حنيفة ج ٢ ص ٢٤٥

وينقل ذلك طاش كبرى زاده فى كتابه «مفتاح السعادة» ج٢ ص١٠٢

ولم يرد كتاب فى هذا العلم فيما أورده صاحب «الفهرست» لابى يوسف من الكتب واذا صح أن لابى يوسف أو لمحمد كتابا فى أصول الفقه فهو فيما يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبه أهل الحديث من الاستحسان

وقد يؤيد ذلك، أن صاحب «الفهرست» ذكر فى أسماء كتب أبى يوسف. كتاب الجوامع ألفه ليحيى ابن خالد يحتوى على أربعين كتابا، ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخوذ به ولم يكن فى طبيعة مذهب أهل الرأى الذين كان من مهمهم أن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها، النزوع الى تقييد الاستنباط بقواعد لا تتركه متسعا رحبا

على أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم فى (أصول الفقه) على مذهب أبى حنيفة لا يعارض القول بأن الشافعى هو الذى وضع (أصول الفقه) علما ذا قواعد عامة يرجع اليها كل مستنبط لحكم شرعى

وقد لا يكون بعيدا عن غرض «الشافعى» فى وضع «أصول الفقه»: أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث ويمهد للوحدة التى دعا اليها الاسلام

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ أمام جريدة الاهرام

تليفون نمرة ٥١٣٩٤

لصاحبها حسن محمد

أول مكتبة افرنجية يملكها مصرى

تبيع بسعر الخارج

كتب الطب والجامعة المصرية والمدارس العليا والثانوية

تبيع المكتبة طبعة جديدة متقنة من رواية عودة الروح للاستاذ توفيق الحكيم وثمنها عشرة قروش

ويوجد أيضاً كتاب جهاد الأمم فى سبيل الدستور للاستاذ محمد شوكت التونى المحامى وثمنه ١٠ عشرة قروش

صفى الدين الحلى

— ٣ —

(تتمة)

كانت مصر إذ رحل اليها الشاعر فى عهد زاهر مثمر من أكثر نواحى الحياة، فهبط اليها كما يهبط الطائر الصادى على الروض الدانى اليانع: ينهل من موارده فى شوق ويتنقل على دوحاته فى طرب، ثم ينثنى عنه وقد ارتوى الى وطنه شاديا مترنما!

فقد أصبحت بعد ان ثل المغول عرش بنى العباس وأسدلوا على بغداد الستار، مركز الثقافة الاسلامية الأكبر وموئلها الحصين: تنهض فيها جامعة الازهر والمدارس الأخرى حولها بأعباء الرسالة العظمى للعلم والأدب، وتشترك سلاطينها بأيد عاملة نشيطة فى تأييد هذه الحركة وتغذية روحها بعوامل القوة: بما تحدثه من المدارس وما تغدقه فى كرم على العلماء والادباء من هبات وصلات

وكان عصر السلطان الناصر بن قلاوون من خير عهود دولة السلاطين الأولى: إذ كان السلطان نفسه — كما يقول السير وليم موير — «مثقفاً ثقافة عالية، درس علوم الفقه والقانون ونال شهادة فيها فكان يحب العلم والعلماء ويشاركهم فى كل أمر فيفيضون فيه»، وكثيرا ما يكون الملوك المثقفون نعمة على رسل الثقافة لما يملكون من حسن التقدير لأعمالهم، وصدق الشعور بحلاوة ثمراتهم، وقد روى عنه أنه أقطع أبا الفداء المؤرخ الشهير ولاية حماة تقديرا لمكانه وجزاء لما قدمه اليه من معونة فى بعض الحروب. وفى عهده كانت مصر تنعم بشىء من راحة الظافر بعد أن شلت حركات المغول وأنقذت الشرق العربى من بين براثنهم المسمومة، وبعد أن طاردت حملة الصليب المستكلبين فى هدم الاسلام والشرق، وقذفت بهم فى قوة الى البحر! ولكنها مع ذلك لم تكن تغفو عن حراسة هذا الملك وقطع أذناب العدو كلما امتدت اليه، وهو ملك شاسع مترام يمتد ما بين الفرات والحجاز وآسيا الصغرى وجنوب النوبة، ولما كانت إذ ذاك لا تزال طريق التجارة والرحلة بين أوربا والشرق قبل أن يكشف طريق رأس الرجاء الصالح، وعرفت مصر كيف تستغل هذا المورد الثرى أحسن استغلال، وكانت تجبى اليها ثمرات تلك «العاصمة الكبرى»، فقد حازت من المجد المالى ما يمكنها من مواصلة السير فى طريق مجدها العلمى والحربى.